

«الزمن في قصيدة ولا يأتي» بقلم فريدريك شلمان كلفت

للزمن (١) الذي اتناوله في القصيدة شقان :
الاول : هو الزمن الروائي .

الثاني : هو الوعي الحاد بالزمن وبعبارة اخرى احساس الزمنى
بالابدي (احساس ما هو كائن الان بما كان في الماضي وما يكون في
المستقبل) .

ان الزمن الاول (الروائي) ينتهي الى الشكل بصورة مباشرة وان
كان الشكل يعكس المضمون (فهو وسائل تهدف اليه وجماليات تنتسج
عنه) فهذا لا يعني ان ملاحظة الزمن الروائي تتعلق ببناء القصيدة ويمكن
ان تستقل الى مدى كبير عن معية المضمون فهذا الزمن يستطيع ان يبرز
ويلاحظ منفصلا عن اغراضه لانه درجة من الشكل على مستوى كبير
من النضج .

اما الوعي بالزمن (لقاء الزمنى بالابدي) فهو عنصر من عناصر
المضمون يمكن ان يدرس بما هو كذلك ويمكن ان يكون مفتاحا الى
ملاحظات كثيرة تتعلق بشكل القصيدة .

وقبل ان اتكلم عن هذا النوع الثاني من الزمن باعتباريه ، احاول
ان اكتشف البناء الزمني للقصيدة وهو النوع الاول .

من المعروف ان ابسط اشكال الزمن الروائي هو الزمن الراسي ،
وهو ملاحظة الاحداث ووصفها متعاقبة كما حدثت بدون رجوع الى
الماضي او قفز الى المستقبل . ولا بد ان يكتشف القارئ عقم هذا
الشكل البسيط اذ ان الماضي والحاضر والمستقبل نلتقي في اللحظة ولا
يمكن ان توصف اللحظة وصفا متكاملادون وضعها في مكانها من الزمن
بالرجوع الى احداث الماضي والحاضر والمستقبل ، ولا بد ان اللحظة
تبقى نكرة الى ان تعرف بالاضافة الى ماضيها والاشارة الى مستقبلها .
ومفهوم بلا شك ان سرد احداث وقعت في الماضي له ايضا ماضي الماضي
ومستقبل الماضي حيث ان ذلك الماضي كان حاضرا (حاضر الماضي) .

في «الذي يأتي ولا يأتي» نجد السمة الاساسية للحاضر . ففي
ذاته الحاضر هنا انتظار . نحن هنا والان في جحيم نيسابور ولكننا في
ذات الوقت نلاحظ ان هذا الجحيم يعني ذاته وننتظر النهاية المحتومة .
نحن اذن هنا ولسنا هنا . التناج الذي دفعتنا سمادة الطفولة (في
الماضي) ثمنا له وصنعناه (للمدينة الفاضلة البعيدة - لامنا الارض التي
تولد كل لحظة جديدة) (في المستقبل) ننتظر ان نضعه على رأس تلك
المدينة عندما يبرغ نجمها في الافق . ان قلنا عظيمها يعيش في قلب
الحاضر فيقلبه دائما الى تجاوز . التفاصيل الدقيقة عن الام الماضي
والحاضر التي تؤكد وجودها بقوة ينسحب منها الوجود فلا يكاد المرء
يصدقها . ان مقارنة الحاضر بالماضي والمستقبل هنا يخلق مفارقات
شديدة العمق بحيث يعود هذا الحاضر غريبا لا يقينيا بعيدا عن
التصديق .

ان الحاضر يعني نفسه في الاتصال والتاريخية historicity

فما يحدث الان له جذوره في الماضي وفروعه في المستقبل ، وقلق
التاريخية هو الذي يجعل الفاعل يكاد ان يرتعب من افعاله خشية ان
تكون اسبابا لتناج لا يستطيع التنبؤ بها وخشية ان تعبر هذه الافعال

عن حتمية تجعل هذا الماضي (الذي يثور عليه) هو المهيمن على
افعال الحاضر .

وسوف نلاحظ هذه الصفات الاساسية للزمن من خلال :

اولا - في البناء : التمهيد والتكرار .

ثانيا - في النسيج : ١ - الصراع بين افعال الماضي والحاضر
والمستقبل . ٢ - الرموز . ٣ - الضمائر .

اولا - في البناء : « التمهيد والتكرار » .

قلت ان السمة الاساسية للحاضر في «الذي يأتي ولا يأتي» هي
نفي الحاضر وهذه السمة تبرز منذ بداية القصيدة فصورة الفلاف
لا ترسم فقط صورة حركة الحاضر ولكنها تقدم نفسها كحلم وأمل وغاية،
واذا كان الشكل الاساسي للبناء - كما قلت في القسم الاول من هذا
المقال - هو هذه الصورة التي نأخذها ككل في نظرة جامعة ثم نتامل فيها
فترينا المتناقضات التي تحتوي عليها ، فان من الواضح ان (صورة على
غلاف) هي المستقبل الذي ننظر من خلاله الى الواقع فنرى فلاحه تنهار،
وهكذا تكون محاكمة الواقع بالمقارنة بالمستقبل اليقيني وهي تتم على
عدة عناصر . فهذا واقع يحتوي على الحلم والقصيدة تصدرهما :

الاول .. بتحديد وتوضيح ابعاده والتاريخ له - هذا هو الواقع -
اما الحلم فيتطلع دائما الى محو القبح ونمو الجميل .. السى زوال
الاشياء المؤلمة من عالمنا ونمو وازدهار واكتمال الاشياء الجميلة الرائعة .
الواقع هو (جحيم نيسابور) اهله « غول جياغ » « جت »
« مشلون فاشلون » « قانون » « شحاذون » « كلاب » « نفايات »
« اصقار تدور » « نمل » « نيسران » « محاصرون » « واقفون في
الشرك » « محروبون » « يكبرون » « شعرهم يشيب ويتجمد » « تموت
فيهم كل الاشياء الجميلة » .

ومدينة الواقع (نيسابور الجحيم) « بفي » « مفتوحة » « يضاجعها
الفرقة ويبصقون في وجهها » « مدينة ثرارة » « فذارة » « مدينة
الحديد والاحجار » « مدينة النمل التي تحكمها الارقام والبنوك »
« مملكة الموت » « خرائب كئيبة » « حجر » « تابوت » « نقش على
الحائط » « نفق مسدود » « مدار مفلق » « ساحة اعدام » « صورة
مزقة » « بطن حوت » « حية سمكية الجلد » « هياكل منهاره » « مقابر
من الحديد والبنوك » « جدران من الزور » « غارقة في الوحل »
« واللبل في الدروب » « يزحف الدود على وجهها المجرور » « نفاية
غريفة » « اكلوية بلقاء » « الساسة المحترفون ينخرون خشب التابوت »
« الساسة المحترفون ورجال المال والبنوك - سادة هذا العالم المنهوك » .
هذا هو الواقع تقول ! اشارات انه مدار مفلق (العيش فيه انتحار)
وتقول ان « الموت في كل مكان - فيه - ضرب الحصار » ونفسول ان
« الكلب باطل وقبض الريح » وتقول ان ليله في كل مكان وان ديك هذا
الليل مات (لا فائدة) (الطريق مسدود) .

لكننا نعود الى الصورة التي كانت على الفلاف - صورة رحيم
(الحق ان رحيم كان على استعداد لدفع اي ثمن مقابل الصورة التي
على غلاف الكتاب ، صورة سلطان على صهوة جواده يعمل سيفه في
جسد احد الكفار) (١) . قلت اننا ننظر من خلال هذه الصورة (القافية

(١) راجع القسم الاول من هذا البحث في عدد يولييه الماضي من

التي تعمل من أجلها) الى الواقع فنرى قلاعه تنهار .

فهذا الواقع (« مفارة في داخلها بحر ») محارة تنام فيها امرأة (« ارض بور ولكن البذور فتحت عيونها في باطنها ») باختصار (ليس مدارا مغلقة) هذا تعرف يأتي بتحول عظيم في فهمنا للواقع (الواقع يمكن فهمه ويمكن تغييره) (الواقع مفهوم والعمل على تغييره يجري على قدم وساق) قال برشت : « لان الأوضاع على ما هي ، فانها لن تبقى على ما هي » (1) ولان الواقع الذي تصوره القصيدة هكذا فان لن يبقى هكذا (يجب ان يتغير) (انه - بالفعل - يتغير) ونحس الذين رأينا الحلم الوحيد الذي يشير اليه هذا الواقع قد رسمنا صورة الحلم وانما من خلالها ننظر الى هذا الواقع .

ها هو الحلم : صورة الغلاف : غايتنا التي تعرف اسبابها (كان على جواده ، بسيفه البتار - يمزق الكفار - وكانت القلاع - تنهار تحت ضربات العزل الجياع) . لقد انتقلنا من الواقع السى الحلم : الحلم المتعلق بزوال ألم . ان التمهيد (الاشارة الى المستقبل) يشير السى خط مسنم على طول القصيدة : « ولتحرق الصاعقة الجسور » « اينها السحابة ! - لتفسي ذائب المدينة الثائرة - وهذه القذارة » « فحول رأس القيصر التسور - تحوم والأمطار - تفسل جرحك الدفين ، تفسل الأشجار » « ارى بعين الفيب نيسابور تحوم حول رأسها التسور - يسلم جلدتها وتشوي حية في النار - ارى النعابين على الاسوار - والملك الحمار - يباع في الاسواق » « وددت لو اغرقت هذا المركب الملىء بالجرذان - وهذه المدينة المومسة الشمطاء » « اينها المحارة - تكسرى ، تطايري ، نغمصي العبارة - وانداعي شرارة - تحرق نيسابور - تفسل وجهها اليليد الشاحب المرقور » « انهيار هذه السدود » « لزلزلت مقابر الاسمنت والحديد والبنوك » « وانحسر الظل عن الصورة وانسد جدار الزور » « والبهلوانات على الحبال - ذابوا كمسا يدوب مسخ الليل في النهار » .

والحلم لا يرسم الصورة التي نريد احرافها فقط ولكن ايضا الصورة التي نريدها ان تكون « فالفجر في الدروب » ونحن في انتظار « المدينة الفاضلة البعيدة » « مدينة - لم يفف الشحاذ ولم يسند على رصيفها جبينه » « الحقيقة » « الحقيقة » « حقول النور » « امرأة نام في محارة » « صبية ناضرة البكارة » « الجنان المعلقة » صورة مجتمع تطهر من الادران وانطلق (في طرق لم يسلكها انسان) جنسة الارض (ما لا عين رأت) اما انها تأخذ شكل العودة السى الفردوس المفقود والعصر الذهبي (جنائن بابل المعلقة مثلا) فاني اغلقه قليلا . ان صورة الحلم لا تبقى استنائية كما يؤخذ من الفقرة السابقة ، بل انها تأخذ شكلا نصاليا عندما تجد رمز تلك المدينة الفاضلة البعيدة (نيسابور الجديدة) في عائشة : ان عائشة التي يسحبها الزمن السى الخلف ، نحاول نحن ان نسمك بها وان نقبض عليها طول الوقت ، ورسم صورة عائشة ضروري هنا :

والاشارة الاولى تأتي في الجزء الثاني من القصيدة (الطفولة) : « - قالت ، ومدت يدها : أهواك - وابتنس الملاك - وغاب في الجدار » (لندع الان مسألة الاستحالة فسوف نتكلم عنها مستقبلا) وبعد هذا التمهيد الروائي الذي يصيبنا بالقلق ازاء هذه التي مدت يدها وقالت : أهواك وابتنست كالملاك ثم غابت في الجدار تصل الى الجزء السادس (المونى لا ينامون) فتلقي بعائشة لقاء كاملا « عائشة ماتت ، وها سفينة الموتى بلا شراع - تحطمت على صخور شاطئ الصياح - قالت ، ومدت يدها : الوداع » « عائشة ماتت ، ولكني اراها تدرع الحقيقة - فراشة طليقة - لا تعبر السور ، ولا تنام . - الحسزن والبنفسج الذابل والاحلام - طعامها من هذه الحقيقة السحرية » وعائشة اذن رمز المدينة الفاضلة ولهذا فان موتها (اليأس من عودتها) يعني موت الشعر (فهي اوريديس بالنسبة الى الشاعر اورفيوس) وهي نهر الشعر « ومات في

(1) ارسلت فيشر : الاشتراكية والفن ، ترجمة اسعد حليم ، كتاب

داخلك النهر الذي ارضع نيسابور » ، ولهذا ايضا فهي تأخذ صورة عشتر فتعوز لن يعود الحياة الا اذا مارس معها طقوس الاخصاب « وايقظي النهر الذي في داخلي مات ورشى النور - في ليل نيسابور - ولتبتري البذور - في هذه الارض التي تنتظر النشور » .

نقف قليلا : المدينة الفاضلة ليست استنائية ومن ارتباطها بصورة عائشة تأخذ ديناميكية نصالية (فمأشمة لا تؤخذ الا غالبا) ولا بد من كسر عنق الزمن ولا بد من احراق الجسور وانهيار القلاع والسدود ، وهي تنتظر فارس الصورة التي على الغلاف « تنتظر الفارس يأتي من بلاد الشام » « يأتي ولا يأتي ، اراه مقبلا نحوى ، ولا اراه - تشير لي يدها - من شاطئ الموت الذي يبدأ حيث تبدأ الحياة » ويقتن مجيئه بعودة عائشة « تعود لي من قبرها المهجور - تسمح خدي وتروي الصخر والعظام » ان هذا اللقاء هو لقاء اخصاب في شكل ينحدر من الثقافة البابلية « بابل تحت قدم الزمان - تنتظر البعث ، فيا عشتر - قومي ، املئي الجرار - وبللي شفة هذا الاسد الجريح » « لكنما عشتر - ظلت على الجدار - مقطوعة اليدين ، يعلو وجهها التراب » والاخصاب لا يتم والقسوة الحجرية التي نرتطم بها تكينا (بكائية) والبكاء تعبير عن اليأس وشعور هاملت المائد من الموت (في انجلتره) الى البحث عن الحياة (في الدانمرك) وهو يفاجأ بالقبر الذي يحفر من اجل أوفيليا هو شعور بطل القصيدة « تتبعني جنازة الشمس الى الابد - من ها هنا انزلها الحفار - للقبر وهي في ثياب العرس ، فوق رأسها تاج من الازهار » « اتبع موتها ، بلا دليل - اجر خلفي سنوات حبا كديسل ثوب فاقع طويل » والياس يستبدل « فالليل في الدروب » « بالفجر في الدروب » ولكن هذا اليأس يقود الى تعرف سوف يكون سببا في تحول عظيم (انت تبحث عن عائشة : انها ليست هنا ، ولا بد لكسي تجدها ان تترك وجه نيسابور (الجحيم) الى الوجه الاخر ، الذهب و (ثر) « على الطفاة والالهة العمياء - والموت بالبحان والقضاء » (اينها الفاية التي ضلت سبيلها ، ابحتي عن الوسائل الجديدة بسك والتحمي بها واتركي البكاء وابحتي عن كل بذرة تنمو في هذا الجحيم وتفحصيها وتحققي من خلالها (الفاية التي تعرف وسائلها) لقد عرف بطل القصيدة شيئا جديدا (اكتشافا) .

ان ملاحظة الاشياء العظيمة التي تنمو هي الاكتشاف وسوف يتعلق الحلم منذ الان بتلك الاشياء . وفي صورة الغلاف - التي نرى فيها كل شيء - رأينا « القلاع تنهار تحت ضربات العزل الجياع » و (الفجر في الدروب) معلق على تلك الضربات في جزء (الطفولة) « البشر الفانون في مدينة الحديد والاحجار - تسلقوا الاسوار - ونصبوا الشرك » (يلاحظ ان عائشة تأتي لأول مرة في القصيدة في البيت التالي لـ « ونصبوا الشرك » - اشارة الى محاولة ايقاع عائشة في الفخ الذي نصبه « البشر الفانون » « العزل الجياع » - اشارة الى محاولة اصطياد المدينة الفاضلة البعيدة في الفخ - واشارة الى ان هذه المدينة الفاضلة التي ننتظرها من نصيب البشر الفانين الذين طال بهم القهر والظلم والذين هم وحدهم جديرون بها) « البشر الفانون - يحطمون بيضة النسر ، ويولدون - من زبد البحر ومن قرارة الامواج - من وجع الارض ومن تكسر الزجاج » يصفون فسب الطريق الصعب (فوق السراط) « اقدام جردان على السجاد - مرت ، وبار ومضت من خلل الرماد » والمستقبل الذي يرتبط به هؤلاء البشر مرتبط بالعمل ومن خلال العمل سوف يشقون طريقهم نحو النور ولهذا يأتي الحلم الذي يتكرر دائما « البشر الفانون يولدون - من زبد البحر ومن قرارة الامواج - من وجع الارض ومن تكسر الزجاج » مباشرة بعد هذا البيت « ثور حرائة يشق الارض في اصرار » .

فلت في القسم الاول من المقال : ان القصيدة اخذت شكل التأمل ومن هنا كان الخيام - الذي ننظر من خلاله الى كل ما في القصيدة . واذا كانت القصيدة تتكلم عن البشر الفانين الذين يولدون من جديد فالخيام واحد منهم وهو البطل الذي تعرضه القصيدة .

وامام بطلنا مثل (للمقارنة) (للمفارقة) هو بطل صورة الغلاف

« كان على جواده ، بسيفه البتار - يمزق الكفار » وهو في سبيله الى تحقيق المثل يقدم تضحيات منذ الطفولة « بثمان الخبز ، اشترت زنبقا ، بثمان الدوا - صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيدة » والزمن يقفز بنا من الطفولة (في حانة الاقدار) « وانت في الغربة لا تحيا ولا تموت » ومنذ الان يوضع الخيام المنفي هذا الوضع الحرج وهو يمتحن امام هذا العجز التام « اصابت السهم فلا مفر ، يا خيام - ولتحتسب الديك حمارا انها مشيئة الايام » ان عليه ان يوفد الفانوس ويبحث عن الفراشة ويشرب ظلام النور ويحطم الزجاج (ولكنه في عجزه ليس له غير « . . الخمر في الاناء - فعب ما تشاء - بقية السماء - او قذح البكاء - في حانة الاقدار » .

ان هذا الخيام المنفي الذي « في سنوات الموت والغربة والترحال » كبير وشاب شعره وتجدد وجهه وماتت احلامه « ومات في داخلك النهر الذي ارضع نيسابور » يحاصر تماما « والموت في كل مكان ضرب الحصار » ويجب عليه هو العاجز ان يدفع الالام والسجون والاصفاد ثمنا لشهادة الميلاد ، وليس امامه غير مثل الواقع الوحيد « فقير هذا العالم الجواب - ينام في الابواب » ولا يملك شكل التامل في هذه الحالة الا ان يفذي عجز الخيام (المستسلم) بكل بطولات الانسانية فيخلق بطلا عظيم المظمة عظيم المهانة (هو الشهيد الذي يقدم دمه من اجل عيون المدينة الفاضلة : المهان في هذا العالم في الوقت ذاته) ، ان هذا الشهيد يجد احد رموزه في لوركا « يجر وافقا للموت في الميلاد » (لا بد من الاشارة هنا الى الارنب المنعور وقد مهدت له القصيدة في الجزء الرابع (في حانة الاقدار) بالظبي « الظبي في الصحراء - وراءه كانت كلاب الصيد تجري في المساء » ثم في الجزء الخامس (طردية) نرى الارنب المنعور « تنهشه الكلاب » « يموت تحت قدم الصياد - مخضيا بدمه الاوراد » ويأتي لوركا بعد هذا مباشرة ويوصف بالصفات نفسها) وفي الجزء التاسع (العودة الى بابل) ترد الى لوركا (الذي مات وافقا) (قتله الاعداء) كرامته « معجزة الانسان ان يموت وافقا ، وعيناه الى النجوم - وانفه مرفوع - ان مات او اودت به حرائق الاعداء - وان يضيء الليل وهو يتلقى ضربات القدر الفشوم » وعندما يأتي التعرف (فعد لنيسابور - لوجهها الاخر ، يا مخمور - وثر على الطفاة والالهة الممياء - الموت بالجان والقضاء) فان مرحلة تبدأ نلتقي على طولها ببطلنا الانسان الشهيد وهو يمتحن في مواقف كثيرة .

وفي الجزء الحادي عشر (الحجر) « تهرأ الخيام - وسقطت اسنانه ، (رمز من رموز العجز الجنسي الفرويدية فهو لم يعد قادرا على ممارسة طفوس الاخصاب مع عشتر) وجفت العظام - وهجرت يقظته عرائس الاحلام - والودود فوق وجهه فار وفي الافداح » وهو في صورة السندياد « جنية البحر على الصخرة بكي : مات سندياد - وها انا اراه - بورق الجرائد الصفراء ، مدفونا ، ولا اراه - : مركبه يباع في الزاد - وسيفه يكسره الحداد - من يشتري عبدا طروبا ؟ قالت الاصفاذ » (عجز نام يرتطم به) ولكنه ليس العجز ما يأتي في الجزء الثاني عشر (الموت) ولكنه الاخضاء (امام الموت) ويكاد جزء الموت ان يكون تأملا حرا (خارج الزمن) (في المطلق) نلتقي بعده في الجزء الثالث عشر (الوريث) ببطلنا ذليلا مهانا (مخصيا بكلمة واحدة) وقد كان جزء (الحجر) تمهيدا لهذا الانسان الذي نقابله في (الوريث) « وريث هذا العالم - الانسان - يحوم حول سوره عريان - فاكهة مجرمة » (ومدن بلا ربيع مظلمة - مفتوحة ، مستسلمة - تحيا على الفئات) « يلهث مهزوما على قارعة الطريق - يحمل وجه هالك غريق - ينام في المقهى ، ككلب جائع ، افاق » (يبحث عن وظيفة شاغرة في صحف الصباح) « يعدو بلا اقدام » « تآكله الحمى ، تدير رأسه الارقام » (وريث هذا العالم ، المهان - يبحث عن مكان - يموت فيه صافرا ، كالكلب ، بالجان) .

نقف قليلا : (نقارن) « كان على جواده بسيفه البتار - يمزق الكفار » ولكن بطلنا (ممزق شر ممزق) ولكننا نعود دائما الى المثل

العظيم (معجزة الانسان) .

وفي الجزء الرابع عشر (الليل في كل مكان) يقف « منسحقا مقروور » ويقول (- الموت في كل مكان ، وانا انتظر الاشارة) ليس كبرا ولا طول لسان هذا الذي نسمع : انه خيط الدم هذا الذي يوصله بنضال الانسان كله في سبيل كرامته « البشر الفانون في الظهيرة - يمارسون لعبة الحياة - والموت في المسيرة الطويلة - يحترقون ليضيئوا شرف الانسان - ان لا يموت راكعا منسحقا مهان - كالكلب تحت عجلات العار - وان يعيش في خطوط النار - منتصرا ، حتى وان حاقت به الهزيمة . » وفي خيط الدم تلتقي نضالات البشر « خيط دم يجري على الارض الموات ، في عروق النور » (وولد الانسان من جذيد - شجيرة من خلل الرماد والجليد - مزهرة ، وصيحة اطلقها وليد .) واذا كان الجزء الاول (صورة على غلاف) يصنع اسطورة النصر فان الجزء السادس عشر (خيط النور) يصنع اسطورة النضال السذي يؤدي الى ذلك النصر (اسطورة الوسيلة) . وتجتمع هنا صورة الوريث بجانب صورة نضاله (يبيع في مطار روما علب الكبريت - وصحف الصباح والازهار) (في الهند يعلو وجهه اصفرار .) (يقدم رميا بالرصاص ، عاريا يولد او يموت) (يجهد في البكاء) (يكتب فوق حائط السجن ، وفوق جبهة المدينة - اشعاره الحزينة) (مناقلا يموت في مدريد - مضرجا بدمه وحيد - تحت قرون الثور او في ساحة الاعدام) (تلخيص للتجربة التي بدأت منذ الجزء الحادي عشر (بكائية)) وتبين ان كل هذا رافد من روافد نهر الدم (الدم في كل مكان ساخنا يسيل) (رأيت : يمتد من جبل الى جبل كخيط النور) (يلحق في لسانه الحاره - يفتضها ، يفتصب العبارة - يعيدها صبيحة ناضرة البكاره .) (يخرج الانسان من خيط النور (منتصرا حتى وان حاقت به الهزيمة) (رأيت : يولد في مدريد - في ساحة الاعدام او في صيحة الوليد - متوجا بالفار - تحوم حول رأسه فراشة من نار) (ينتصر الايقاع الاصلي بانتصار الانسان (بانتصار البشر الفانين الذي يصنعون مدينة حلمهم العظيم) (وولد الانسان - من زبد البحر ومن قرارة الامواج - من وجع الارض ومن تكسر الزجاج) .

والتكرار : هو الوجه الاخر للعملة فاي شيء سبقت الاشارة اليه يكون تكرارا والتماثل analogy في التكرار (اي تكرار حدث واحد او فكرة واحدة في حالة جديدة كل مرة) مثل « عائشة » : (اللقاء مرة والوداع اخرى) يعمل ايضا على ابراز السمة الاساسية في القصيدة وهي ان (الحاضر تجاوز مستمر) .

تانيا : في النسيج :

١ - الصراع بين افعال الماضي والحاضر والمستقبل :

الفعل الماضي الذي يجعل النبوءة حقيقة واقعة (حدثت بالفعل) (اليقين) في الجزء الاول (صورة على غلاف) والذي يجعل المنضال تاريخا في الجزء الثاني (الطفولة) والذي يخفق نيسابور في الجزء الثالث (الليل فوق نيسابور) يخففها ويحاصرها ليخرج ملحاً ، لا يصور عالما منتويا (مدارا مقلداً) بل انه ليضع الحقائق التاريخية فوق خلق التفسير (وكان الحاضر يؤثر في الماضي) (البعث) .

وبالانتقال الى الفعل المضارع « الحاضر » نجده يتجاوز نفسه دائما ، فالشعور الذي نلتقى به (كبرت يا خيام) (هذا الفعل الماضي) (الذي معناه « وتكر الان ») لا يختلف عن الحاضر ولا المستقبل وهكذا فان الفعل المضارع (« نهشه » الكلاب) يدفع به الفلق الى المستقبل وكذلك (وانت في الغربة لا تحيا ولا تموت) .

(الخلاصة) الاحداث موضوعة دائما (في كل الازمنة) فوق خلق التفسير فالحاضر يبدد الماضي ويتجاوز نفسه نحو المستقبل والمستقبل يظله الماضي ويسحبه الى الخلف والماضي يخفق وفائمه فيخلق اللاحق في الخروج .

٢ - الرموز :

ورموز الاخصاب هي التي تهينا هنا : لان الشيء الاساسي هنا هو التفسير ولا تفسير بلا اخصاب .

« لاما الارض التي تولد كل لحظة جديدة » (الطفولة) والولادة هي نتيجة الاخصاب ولانه لا يتم في رمز عائشة (وترتبط بالحجر) فان اشارات الاخصاب تتكرر (وتجاور الفشل في رمز عائشة) « وزارعين نخلة » (في حانة الاقدار) « الى البحار ، حمل البذور » « ولتبدري البذور - في هذه الارض التي تنتظر انشور » (الموتى لا ينامون) « فقدا تخضر نيسابور » (الذي يأتي ولا يأتي) « ارى البذور فتحت عيونها في باطن الارض وشقت دربها للنور والهواء » « فحقول النور - امرأة تولد من اضلاع نيسابور » (الرؤيا الثالثة) (الدم في كل مكان ساخنا يسيل - يلق في لسانه المحاره - يفتضها ، يقتصب العبارة - يعيدها صبية ناضرة البكاره .) (خيط النور) « لامنا الارض التي تحمل في احشائها جنين هذا الامل المنشود » (تسع رباعيات) .

٢ - الضمائر :

الخيام بطل القصيدة : انتقاله من غائب الى متكلم الى مخاطب ، يمسك نغيمات في الزمن ، وينتقل اشخاص مجهولون او معلومون واشياء مختلفة بين هذه الضمائر .

والقريب حقا هو ان يوضع حلم البشر الفانين وهم يولدون ككلام صادر من لسان لا نعرف صاحبه (ان هذا يعرض هذه الحقيقة للشك فهي لم توضع كما ينبغي كحقيقة علمية وانما وضعت قبلها « شرطة » بدل على ان احدا (ليست بيننا وبينه نفة خاصة) يتكلم .

انتقل الى النوع الثاني من الزمن (هذا الوعي الخاص بالزمن) (التفاء الزمني بالابدئي) وسوف اتخذة اولا مفتاحا ينظر من خلاله الى بعض عناصر شكل القصيدة :

١ - الماضي : ان الاحساس الحاد بالماضي (لانه مصير كل حاضر) يملأ القصيدة بالاشارات والاحالات الى الماضي :

الاماكن : نيسابور - بابل - روما - نينوى - طيبة .

شخصيات من التاريخ : بوذا - الاسكندر الاكبر - هوميروس - سقراط .

شخصيات من الاسطورة : اورفيسوس - عشتار - تموز - اوريس . ويجاد مثل هذا البعد التاريخي والاسطوري في محاولة وضع الحاضر (بجانب جلوره) سوف نتكلم فيه فيما بعد .

٢ - المستقبل : ان مقارنة الحاضر من ناحية اخرى بالمستقبل نتج عنها (مفارقة) لا تجعلنا نصدق ونريد ثانية الى الماضي نبحث عن الصور التي تنسحب الى الخلف (كاعمدة التليفون بالنسبة الى راكب القطار) :

أ - ارم العماد : تنسحب (تفرق في ذاكرة الاحقاد) .

ب - عائشة : (: اهاوك) (: الوداع) وهي تنسحب « انبعب موتها وراء الليل والابواب - كزورق ليس به احد - تتعسسي جنازة الشمس الى الابد » .

٣ - التجميد (لا بد من التذكير بالفيلم التشيكي « الصرخة ») كان الرأي السائد في الفيلم ان حياتنا تفاحة مرة « عندما تحاكم امام المصير » وقد استخدم الفيلم فيما استخدم طريقة تجميد الشوارع الذي يعج بالحياة (مثلا) في صورة فوتوغرافية وقد أنتقل مرة ببطلة الفيلم من حالتها المرحلة « في الصورة السينمائية » الى حالات لها في صور فوتوغرافية منعاقبة فكنا نراها مرة متكئة على وجهها فوق الثلج واخرى نجدها في فزع عظيم وثالثة ننتقل منها الى تماثيل شوهاء بشكسل فطبع (وقصيدة « الذي يأتي ولا يأتي » تستخدم وسائل مشابهة مثل تجميد عائشة في صورة عشتار (على الجدار) (مقطوعة البيدين ، يعلو وجهها التراب) ومثل تجميدات الجزء الرابع عشر (الليل في كل مكان) الذي يأتي بعد جزء (الوريد) : (جماجم الموتى ، كتاب اصفر ، فيثاره - نقش على الحائط ، طير ميت عباره - مكتوبة بالدم فسوق هذه الحجارة) وحتى « الجيل الفاضب » يقترن بـ (نقش على الحائط) (كان البحر في المقاره) (امرأة تنام في محاره) .

ثانيا : نظر الى الزمن بما هو احد عناصر المضمون : مقارنة

الحاضر بالماضي والمستقبل والوعي الحاد بهذه المقارنة يخلقان الشك والكفر واللايقين كما يخلقان الاصل والتاريخية .

وهذا القلق الشديد على الاجيال القادمة من المرات التي ترثها من غناء الانسان تحت الشمس « لو اكل الالباء هذا الحصرم المسموم - لضرس الالباء » يعيش في كل شيء ويخلق (المسؤولية) الكاملة التي يشعر بها كل انسان آزاء الماضي والمستقبل (الاجيال التي مضت والاجيال التي تجيء لتمضي) .

من هذا القلق يخرج الانحاح على الانتصار (الذي يعيش في قلبه الخوف) « لا بد ان نختار - ان نقبض الريح وان ندور الاصفار » والانحاح على ايقاع (المدينة الفاضلة) في فخ البشر الفانين (في رمز عائشة التي ترمز الى تلك المدينة) (وعلى الاخصاب في رمز عشتار) يخلق اشكالا من الشك والكفر واللايقين .

ونحن نحاصر المستقبل (كما حاصر الآخيون طروادة لآخذ هيلين) فاننا نشك في انفسنا وهذا الشك هو الذي خلق هذا النشيد الحزين (- مولاني ! فال النجم لي ، وفالت الاقدار - باننا ممثلون فاشلون فوق هذا المسرح المنهار) (صورة على غلاف) وان تلك الاحلام العظيمة لتتحول الى اوام مشكوك في صحتها (بالمقارنة بالواقع المرضي) « ازهر الحديقة ؟ - وتولد الحقيقة ؟ - من هذه الاكثوبة البلقاء »

« من هذه النفاية الفريفة ! » (الطفولة) ونقلب الموازين (- لنقرأ الكتاب بالمقلوب - متقنين في حواشيه عن المكتوب والمحجوب) (الليل فوق نيسابور) (ويقرأ التقويم بالمقلوب - بحيلة المقلب) (طردية) ويخيفنا ان يموت الفجر قبل ان ينبلع (كاترين) (وهي تلد الحياة - ماتت) (طردية) ولا يجد عشاق المدينة الفاضلة غير التحيب (اهكذا ينتحب العشاق ؟) (طردية) ومن القلق المخيف يخرج خلق النمامة (دفنت رأسي في الرمال) (طردية) وتنسحب وجوه الرجال التسي هزمها الايام الى الورا بطريقة فاسية (اراك بعد القد ، في المقهى ، وغطت وجهه سحابة - من الدموع ، بملت كتابه) (الموتى لا ينامون) ويضحك الياس في جنون (- ايتها الجنية ! - نثاري حطام) (الموتى لا ينامون) (الكل باطل وبيض الريح) (الذي يأتي ولا يأتي) ويعسد الكلام عن اخضرار نيسابور يضحك الياس ايضا (كلاب رؤيا ساحر مسحور) (الذي يأتي ولا يأتي) .

من كل هذا يأتي سؤال (هل هذا اليأس موفق ؟) (مضمون) ان هذا ليس صحيحا : ان تصوير الواقع البشع والانحاح على ضرورة انتهاء بشاعته وضرورة نمو الاشياء الجميلة والحث على العمل من اجل المدينة الفاضلة وادانة الحياة في هذا الواقع بانها (انتحار) باختصار يخلق (التمرد على هذا الواقع بشدة) هذا النوع من الشعور الذي هو قلق رجال يعملون وليس ياس جردان . ان الاستحالة التي يرتطم بها املنا في وقوع الاخصاب المتصل بعائشة (عشتار) لا تخلق غير التحدي الذي يقبله الرجال دائما) .

والنتيجة العظيمة لهذا النوع من القلق هي المسؤولية العظيمة التي تكمن فيه ومثل هذه الابوة التي يحتضن بها كل انسان تاريخ الانسان كله ماضيه ومستقبله وحاضره هي التي تخلق الارتباط العميق بتغيير الواقع والانحاح عليه .

ان الشعور الذي نتلقاه من بيت المهري :

(سيسال قوم ما الحجيج ومكة كما قال قوم ما جديس وما طسم) الذي يمكن ان يفصلنا عن واقفنا ويجعلنا نحترق شأنه ونياس بالتالي من موقفنا في هذا الكون ليس هو الشعور الذي نجده في « الذي يأتي ولا يأتي » .

« ليس ذكر للاولين . والآخرين ايضا الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم . » هذه كلمات الجامعة (٢) ذلك الذي كان يرى ان (الكل باطل وقبض الريح) ولكن قصيدتنا لا توفر مثل هذا

- (١) كاترين باركلي (وداعا للسهلح) هيمنجواي .
(٢) سفر الجامعة : الاصحاح الاول : الآية (١١) .

المضمون بل تنفضه وهي تخلق هذا الاحساس الخاص (الحاد) بالزمن ليحمل قلق المسؤولية الذي يخلق رباطا لا ينفصم بين اي انسان وبين النضال الانساني كله وهكذا يكون خيط النور (الذي يستمد ضوءه من زيت الدم) . . . يمتد من جيل الى جيل كخيط النور) هو (الامل الباقي) لاي انسان (يرتبط به ويرفده بدمه وينال شرف مده على استقامته) .

وخيط النور (هذا) هو الذي يشير الى تحقيق نبوءة الانتصار وهو الذي يعطيها (اليقين) ، وكل امل متعلق بالمستقبل (لان العلم اخذ الفردوس المفقود ووضعه امامنا) (لا كشيء فقدناه بل كشيء نحن في سبيل تحقيقه) ، ولهذا فان (الرجوع الى الماضي) يجب ان نتناقشه هنا ، لنعرف دلالاته .

ان اليأس والامل مرتبطان في القصيدة بالماضي :
اولا : اليأس :

١ - القصيدة التي كتبت في نهايات عام ١٩٦٥ تأخذ مدينة نيسابور القديمة رمزا للواقع (الواقع العربي) بدلا من تناول هذا الواقع مباشرة ، والقصيدة عندما تقول (الساسة المحترفون يتجرن خشب التابوت) او (الساسة المحترفون ورجال المال والبنوك - سادة هذا العالم المنهوك) او (ايها السحابة ! - لتفلسي ذوائب المدينة الثائرة - وهذه القذارة .) فهي لا تتكلم عن نيسابور القديمة (اياك اعني واسمعي يا جارة) .

والواقع العميق يجد رمزه ايضا في بابل المحترقة (بابل تحت خيمة الليل الى الابد - تعوي على اطلالها الذئب - ويملا التراب - عيونها الفارغة الحزينه) (بابل تحت قبة الليل ، بلا زاد ولا معاد - بلا حنوط ، يرتدي عباءة الرماد) .

٢ - الفشل مع عائشة يجد اكتماله في امتناع الاخصاب في رمز (عشنتار) البابلي (لكنما عشنتار - ظلت على الجدار - مقطوعة اليدين ، يعلو وجهها التراب) و (تموز) البابلي ايضا (تموز لن يعود للحياه) (العودة من بابل) .

ثانيا : الامل : (الذي يأتي) ياخذ شكل (من يعود) كما (تعود لي عائشة من قبرها المهجور) واذا كانت العودة - كما قلت في بداية القسم الاول من المقال - ترمز الى الرجوع الى البكارة والتطهر من ادان عهود القهر التي مرت بها الانسانية ، فان الغريب ان لا يقتصر

(البعث) على الخروج من شروط الحاضر بل ويغير الماضي البعيد ايضا (بابل تحت قدم الزمان - تنتظر البعث) (العودة من بابل) (لـو جمعت اجزاء هذي الصورة المزقة - اذن لقامت بابسل المحترقة - تنفض عن اسمائها الرماد - ورف في الجنائن المعلقة - فراشة وزنبقة) (وابستمت عشنتار) (وعاد اوزريس) (ونورت في سبأ بليقيس) .

ان الملاحظة الاساسية هنا هي هذا (الرجوع الى الماضي على المستويين التاريخي والاسطوري) والسؤال الاساسي الذي ينتج عنها هو (هل هذا الرجوع الى الماضي هروب من الواقع « الحاضر » ؟) في اعتقادي ان هذا الرجوع الى الماضي من نتائج الاحساس الخاص بالزمن الذي تحدثنا عنه واذا كان الواقع (عقيما) والمستقبل (لا يقينا من الناحية الحسية) فان الرموز العظيمة للماضي تكون لفة اساسية (هذا في حالة التفاؤل) اما (في حالة اليأس) فان ما حدث حتى الان تحت الشمس لا يساوي (بالنسبة الى الحاضر) شيئا ، اذا لم تخرج منه (المدينة الفاضلة المنتظرة) ويصبح الماضي غير قابل للتصديق (كان لم يحدث) عندما يعجز عن الاشارة الى اي مستقبل .

اما الهروب من الواقع فهو بعيد عن القصيدة تماما فهي تحدد هدفها بصراحة (وعادت البكارة - لهذه الدنيا التي تضاجع المسوك والحجارة - لهذه القديسة الهلوك . - لو جمعت ، لاندلعت شراره - في هذه الهياكل المنهاره - لزلزلت مقابر الاسمنت والحديد والبنوك) ، وهي تحدد (المدينة الفاضلة) وهي ليست تجريدا ، وهي تربط هذه المدينة المنتظرة بالجماهير (البشر الفانون) وهي تجعل عمل هذه الجماهير الوسيلة الوحيدة اليها (ثور حرانة يشق الارض في اصرار) ، وهي تجعل لنضال هذه الجماهير رمزا واحدا كبيرا في (خيط النور) (المصنوع من الدم) .

ومن تصوير القصيدة لواقع (جحيم نيسابور) نستطيع ان نعرف - على وجه التحديد - الحلم (نيسابور الجديدة) (المدينة الفاضلة البعيدة) . وهكذا رسمت القصيدة صورة الواقع ثم نسجت منها اسطورة الانتصار (نبوءة صورة على غلاف) التي تعرف وسائلها في اسطورة النضال (خيط النور) . وان هذا الوعي الخاص (الحاد) بالزمن هو الذي لفق بقلقه كل جزء من القصيدة وخلق المناضل المسنول عن كل الانسانية في تاريخها ومستقبلها .

مسرح الجيب - القاهرة
خليل سليمان كلفت

دار الاداب تقدم

العلم الكبير للفتاة

لغدوى طوقان

الديوان الرابع لواحدة من اكبر شعرائنا المعاصرين ، وفيه التعبير المرفه عن ذروة الاسى الذي ما

فتيء يحاصر الشاعرة ويجعل قصائدها نسيج وحدها في الشعر العربي الحديث .

يصدر قريبا